من أسرار استعمالات القرآن الكريم

دراسة في التركيب والدلالة

م.د. ضياء فاخر جبر

جامعة بغداد/كلية التربية-ابن رشد

م.د. كاظم حسن جاسم الفتلاوي

جامعة كربلاء/كلية العلوم الإسلامية

ملخص البحث:

يتلخّـــــص البحث في دراســـــة عدد من أسرار الاستعمالات القرآنية اللطيفة والعجيبة في التركيب والدلالة ، مثل : دقة استعمال حروف المعاني ، ومنها دلالة الجمع بالواو في قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ الإسراء : ٢٣ ،كذلك استعمال حرف الجر (عن) في قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ النمل:٤٤.

وكذلـــــــــك تناول البحث الفروق الدقيقة بين التراكيب المتشابهة في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ الإسراء : ٣١ وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ الأنعام : ١٥١.

وتطرق البحث إلى دلالة مجيء الفعل المضارع بعد (رُبَّ) على خلاف الشائع في قوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ، وتوقّف عند مسألة الإحاطة بحروف المعجم في آية واحدة، وذلك في الآية ٢٩ من سورة الفتح: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ...﴾.

وتناول البحث أيضاً دلالة تقديم الموت على الحياة في قوله تعالى: ﴿.. الذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ الملك : ٢، و دلالة تقديم الإناث على الذكور في قوله تعالى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ الشورى:٤٩ـ٥٠ .

وتامّل البحث في وصف القرآن سلخ النهارِ من اللّيل في قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لهُمْ اللَيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النهَارَ فَإِذَا هُم مظْلِمُونَ﴾ يس: ٣٧ ، ووقف عند نسبة عمل الخبائث إلى القرية في قوله تعالى: ﴿وَلُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ﴾ الأنبياء: ٧٤ . كذلك عطف المنفيّات من المفردات والجمل في قوله تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ فاطر : ٢٢.

المقدّمة :

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين حبيب إله العالمين أبي القاسم محمّد، وعلى آله الطيبين الطاهرين .

القرآن خزائن ، وهو كتاب الله الذي لا تفنى غرائبه ، ولا تنقضي عجائبه ، وهو حمَّال وجوه ، زاخر بالصور المعجزة ، ويحمل بين دفتيه أسرارًا لم ندرك إلّا القليل منها بعد ، وبمقدار ما أسعفتنا وسائلنا ، وأدواتنا النحوية، واللغوية، والفكرية، والشعورية التي مهما بلغت من شأنٍ، فإنّها تبقى قاصرة عن الإحاطة بالقليل القليل من هذه الأسرار؛ إذ إنّ ذلك يبقى من علم الله والرّاسخينَ في العلم.

ولكن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالتّدبّر في كتابه، والنظر في آياته فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن﴾[١] .

إذاً، نحن مأمورون بنص القرآن نفسه، بالبحث فيه ، والغوص في بحر لآلِئِهِ، علّنا نفوز بإحدى لآلئ هذا البحر الخضم في محاولة لفهم أكبر ، ومعرفة أعمق ، وأدق لمراد الله سبحانه في كتابه.

وقد حاولنا في هذا البحث أن ندرس مجموعة من الأسرار القرآنية التي يقول عنها المختصون بعلوم اللغة، والنحو إنّها أسرار ، وإن كانت تحمل بين ثناياها أسرارًا ، وأسرارًا الله أعلم بها.

١ – دقّة استعمال حروف المعاني :

أ – دلالة الجمع بالواو :

قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾[٢]

في هـــــــــذه الآية الكريمة جمع الله سبحانه وتعالى بين عبادته والإحسان إلى الوالدين وطاعتهما بـ(واو) الجمع ، وجعلهما في مستوًى واحدٍ، وفي ذلك إيضاح، وبيان مدى المنزلة التي منحها الله للوالدين، إذ جعل طاعتهما مقترنة لعبادته سبحانه وتعالى.

اذاً طاعة الوالدين، والإحسان إليهما ترتبطان ارتباطًا عضويًا وثيقًا بالتعبّد له تبارك وتعالى، وأن لا جدوى من عبادة الله، مهما بلغت درجة هذه العبادة، ومهما اجتهد صاحبها في ذلك، إذا قابلها انتهاك لحقوقهما، وإمعان في عقوقهما. إذ جعل سبحانه وتعالى التأفف منهما أدنى درجة العقوق، حيث لو وجدت لفظة أقل من (أفٍ) لأوردها القرآن المجيد [٣].

والجمع بين عبادة الله سبحانه وتعالى، و طاعة الوالدين، والإحسان إليهما جاء على سبيل الجزم، حيث إن الله سبحانه وتعالى بدأها بالفعل (قضى) الذي يعني: (الأمر والجزم) فلا مجال فيه للمناورة، والاحتيال. ومعنى الكلام: وامركم أن تحسنوا إلى الوالدين، فلما حذفت "أن"، تعلق القضاء بالإحسان، كما يقال في الكلام: آمرك به خيرًا، وأوصيك به خيرًا، بمعنى: آمرك أن تفعل به خيرًا، ثم تحذف "أن" فيتعلق الأمر، والوصية بالخبر[٤].

ومن هنا جاء ربط رضا الله سبحانه وتعالى برضا الوالدين في قول رسول الله ﷺ: «رِضا اللهِ مِن رِضا الوالدينِ وسُخْطُ اللهِ مِن سُخْطِ الوالدينِ» [٥].

لذلك تتضح لنا الوظيفة التي أداها حرف العطف (الواو)، والخطورة التي انطوت على الكشف عن سرّ موقعه في هذه الآية المباركة.

ب- دقّة استعمال الحرف (عن) :

قال تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٦].

(عَنْ) : حرف جَرٍّ يدخل على الظّاهر والمُضْمَر؛ وله مَعَانٍ : منها المجاوزة، كقولك: (بلغني عن زيدٍ حديثٌ) أي: جاوزه. وتُستعمل بمعنى (اللاّم) ، نحو: (لَقِيْتُه كَفَّةً عَنْ كَفَّةٍ) أي: لِكَفَّةٍ. وتكون بمعنى (على) ، كقوله تعالى:﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾[٧] أي: على نفسهِ، ومنه قولُ الشّاعر: [الطويل]

وَرَجِّ الْفَتَى لِلْخَيْرِ مَا إِنْ رَأَيْتَهُ عَنِ السِّنِّ خَيْرًا لاَ يَزَالُ يَزِيدُ [٨]

أي: على السِّنّ. وتكون بمعنى (مِنْ) ، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾[٩]، أي: من عباده. وتكون بمعنى (الباء) ، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى﴾[١٠]، أي: بالهوى. ومنه قولهم: (رميتُ عن القوسِ) أي: بالقوس، وتكون بمعنى (بَعْدَ) ، كقوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَق﴾[١١]، أي: طبقًا بعدَ طبق، وتكون للتعليل، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾[١٢]، أي لأجل قولك [١٣].

وفي هذه الآية المباركة سرّ في غاية الدّقة، واللّطافة يكشف عنه حرف الجر (عن)، ذلك أنّ (بلقيس) ملكة سبأ عندما قَدِمَت على النبي سليمان عليه السلام، ودخلت الصّرح الممرّد فحسبته لُجَّةً ـ واللُّجَّةُ: الماءُ الكثيرُ الّذي لَا يُرَى طَرفاه ـ[١٤]، كشفت عن ساقيها.. أي رفعت ثوبها ؛ كي لا يبتل. وورود الحرف (عن) له دلالة التّدرّج في رفع الثوب قليلاً قليلاً ؛ لأنّ بلقيس كانت تتحرّج، فهنا دقّة في التصوير، وإيحاء مهموس بالعفوية، والبراءة، وليس فيه

أي تعمّد للإثارة العاطفية، وهذا يختلف إذا حذفنا الحرف (عن)، أي يصبح القول: (وكشفت ساقيها..) ففي هذا إيحاء بالتسرّع، وعدم تدبّر الأمور، وفقدان الحزم . إنّ كلّ حرف في القرآن له مكانة المرسوم المقنن، ولا يمكن تقديم كلمة على كلمة أو حذف حرف؛ لأنّ في هذا الحرف حكمة، ومدلولاً بليغ المعنى، وهذا ما تفرّد به القرآن(١٥).

فلولا استعمال حرف الجر (عن) في هذا التركيب النحوي والسياق اللغوي ، ما تحقَّقَت هذه الصورة البلاغية البديعة ، وهذا المعنى اللطيف .

٢- الفروق الدقيقة بين التراكيب المتشابهة :

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾(١٦)، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾(١٧) .

في الآية الكريمة الأولى نهى الله سبحانه وتعالى عن قتل الأولاد؛ (خشية إملاق)، أي إنّ أهلهم في حالة يسر وسعة، ولكنّهم يتخوّفون من الفَقر المستقبلي، بفضل تزايد عدد أفراد الأسرة ، وما يسببه ذلك من ازدياد متطلبات هذه الأُسرة للإنفاق عليها في شؤون حياتها المختلفة، فالقرآن يريد أن يهدم هذا التصور الفاسد، ويطمئن هؤلاء بأنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي تكفل برزقهم، فهو يرزقهم كما يرزقكم ، ودلّت لفظة (خشية) على ذلك، فهي توقّع غير حاصل، أو قد يحصل(١٨).

وفي الآية المباركة الثانية، نهى الله سبحانه وتعالى عن قتل الأولاد ، ولكن لأيّ شيء يقتلون أولادهم هذه المرّة ؟ يقتلونهم؛ لأنّهم يعيشون حالة الفقر فعلاً (من إملاق)، فهم يعانون الفقر، ومجيء مولود إضافي يشكل عبئاً آخر على كاهل الاسرة التي تعاني الفقر، فبيّن القرآن أنّ الله سبحانه وتعالى هو المتكفّل بالرزق لكلّ دابة تدبّ على الأرض ، ومن هنا تعهّد الله سبحانه وتعالى برزق أهل الأولاد (نرزقكم) أولاً ، فهم الذين يتعهدون تربية هؤلاء الأولاد(١٩).

والفرق دقيق بين الآيتين، أنّ في الآية الأولى يخشى أهل الأولاد من شبح الفقر الذي يتجسد لهم بمجرد أن يولد لهم مولود، لذلك تعهد الله برزق هؤلاء الأولاد (نحن نرزقهم) بعود الضمير (الهاء) على الأولاد ، وفي الآية الثانية يعيش أهل الأولاد حالة الفقر فعلاً، لذلك طمأنهم الله بأنّه سيرزقهم هم (نحن نرزقكم) بعود الضمير على أهل الأولاد(٢٠).

وفـــــي هاتين الآيتين الكريمتين تلفت نظرنا كلمة (أولادكم) التي هي جمع وَلَد، «وَالْوَلَدُ بِفَتْحَتَيْنِ كُلُّ مَا وَلَدَهُ شَيْءٌ ، وَيُطْلَقُ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى وَالْمُثَنَّى وَالْمَجْمُوعِ... وَجَمْعُهُ أَوْلَادٌ»[٢١]. فكلمة (ولد) في اللّغة تشمل الذّكور والإناث معاً، وليست مقتصرة على الذكور فقط. ولكنّها في الآيتين الكريمتين تشير إلى عملية الوأد، التي كانت مقتصرة على الإناث دون الذكور ؛ لعَجْزِ البنات عن الكسب، وقدرةِ البنين عليـــــــــه، بسبب إقدامهم على النهب، والغارة، وأيضا كانوا يخافون أن فقرها ينفر كفأها عن الرغبة فيها ، فيحتاجون إلى إنكاحها من غير الأكفاء ، وفي ذلك عارٌ شديدٌ، فقال تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ﴾، وهذا لفظ عام للذكور والإناث، والمعنى : أن الموجب للرحمة، والشفقة هو كونه ولدًا، وهذا المعنى وصف مشترك بين الذكور، وبين الإناث ، وأما ما يخاف من الفقر من البنات ، فقد يخاف مثله في الذكور في حال الصغر، وقد يخاف أيضا في العاجزين من البنين [٢٢].

فلمّا كان الرّزق بيد الله، فلا علاقة إذن بين الإملاق، وكثرة النسل، أو نوع النسل، إنّما الأمر كله إلى الله. ومتى انتفت العلاقة بين الفقر، والنسل من تفكير الناس، وصححت عقيدتهم من هذه الناحية، فقد انتفى الدافع إلى تلك الفعلة الوحشية المُنافية لفطرة الأحياء، وسنة الحياة ، إذ إنّ انحراف العقيدة، وفسادها ينشىء آثاره في حياة الجماعة الواقعية، ولا يقتصر على فساد الاعتقاد، والطقوس التعبديّة. وتصحيح العقيـــــــدة ينشىء آثاره في صحة المشاعر، وسلامتها، وفي سلامة الحياة الاجتماعية، واستقامتها. وهذا المثل من وأد البنات مثل بارز على آثار العقيدة في واقع الجماعة الإنسانية، وشاهد على أن الحياة لا يمكن إلا أن تتأثر بالعقيدة، وأن العقيدة لا يمكن أن تعيش في معزل عن الحياة [٢٣].

وهنا يبرز التساؤل في عدم استعمال كلمة (بنات) بدلاً من كلمة (أولاد) وتكون (ولا تقتلوا بناتكم) ، فكما أشرنا إلى أنّ كلمة (أولاد) التي هي جمع ولد، لفظ مشترك يطلق على الذكور والإناث معاً، وفي استعماله في هاتين الآيتين، وفي معرض النهي عن قتل الأولاد (أي النهي عن وأد البنات) مـــا يؤكد أنّ الأطفال متساوون في ولادتهم، بغض النظر عن جنس المولود، ويجب التعامل معهم على هذا الأساس من غير تمييز، فلا ينصرف الاهتمام إلى كلمة الذكر على حساب الأنثى، فتنزوي بعيدًا عن المجتمع، وتحول هذه المعاملة المجحفة، وهذه النظرة الخاطئة من دون تنمية قدراتها، وقابلياتها، والمساهمة في بناء الحياة الفاعلة الخلاقة، وفي ظهورها على مسرح الحياة، الذي ينبغي ألا يبقى حكراً على الرجل، وتبقى المرأة منعزلة تنظر من مكان بعيد.

٣- دلالة مجيء الفعل المضارع بعد (رُبَّ) على خلاف الشائع :

قال تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾[٢٤].

نلحظ في سياق هذه الآية المباركة أن الفعل المضارع (يودُّ) جاء بعد (رُبَ)، والأصل مجيء الفعل الماضي بعدها، وهناك سر تنبه إليه النّحويون والمفسرون في ذلك، فهذا عبد القاهر الجرجاني يقول في شأن (رُبَ) في هذه الآية الكريمة المباركة : « اعلم أنّ رُب موضوعة للماضي تقول: رُبَ بلدةٍ قطعت، ورُبَ رجلٍ أتيت، ولا تقول : رُبَ رجلٍ أراه غداً، وإذا كان كذلك، كان الأصل في(ربما) أن تدخل على الماضي لقوله: ربما أوفيتُ، وكقول الآخر: ربما أقام، وأما قوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، فراجع إلى المضي إذا حققت، وذلك إنما ما يخبر الله تعالى بكونه فيما يستقبل ، ولصدق الوعد به ، وتحققه بمنزلة الموجود الحاصل، وإذا كان كذلك ، كان (يَوَدُّ) في قوله تعالى بمنزلة (وَدَّ) في المعنى ، ويوضحه قوله: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾[٢٥].

فأتى إذ وهو للماضي بعد مجيء سوف الذي هو علم الاستقبال؛ لأنّ ذلك صار بمنزلة الموجود لتعريه من الرّيب، فلمّا كان كذلك أطلق عليه لفظ المضي، تبيّنها على ما ذكرت من التحقق ، والجري مجرى ما دخل تحت الوجود في استحالة الامتناع عليه ، فكذلك أدخل (رُبَمَا) الذي هو للماضي على المضارع الذي هو (يَوَدُّ) ليجري ذلك مجرى الداخل تحت المضي في القرب من الموجود ، والتعري من الشك»[٢٦].

فدلّ الفعل المضارع بعد (ربّما) على الزّمن الماضي ؛ إذ إن المعنى هو: ربّما ودّوا لو كانوا مسلمين.

٤ـ الإحاطة بحروف المعجم في آية واحدة :

قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[٢٧].

في هذه الآية المباركة مسألة لغويّة دقيقة هي أنّ جميع حروف المعجم العربي قد وردت في هذه الآية من الهمزة إلى الياء ، وهذا سر عظيم ، وإعجاز كبير لا يرقى إليه إعجاز في كل الكتب سواء المنزلة ، أم التي من صنع البشر في آية واحدة نعم في آية واحدة فقط، لا تتعدى الأربعة أسطر بقليل، وكلماتها التي لا تتجاوز ثلاثًا وخمسين كلمة [٢٨].

كل هذا ، ناهيك عن الجوانب الفنية الرائعة في هذه الآية، واللفتات البلاغيّة المثيرة، كالتشبيه البديع الذي جاءتنا به الآية الكريمة ، ويطلق على هذه الدلالة :الدلالة الهامشية ـ أي الدلالة الثانية ـ .

٥- من دلالات تقديم الألفاظ وتأخيرها في القرآن الكريم :

أ- تقديم صفة القوّة :

قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾(٢٩).

الآية الكريمة تلفت أنظارنا كلمتا (القوي والأمين) اللّتان جاءتا على لسان احدى ابنتي شعيب عليه السلام وصفاً لذلك الشاب الذي سقى لهما ، وهو النبي موسى عليه السلام من قبل إحدى ابنتي النبي شعيب عليه السلام ، وذلك أن القوّة تتطلبها طبيعة العمل من سقي، ورعي ، والأمانة توجبها طبيعـــــة هذه الأسرة ، فعرفت قوته بأنه سقى الماشية بدلو واحد ، وعرفت أمانته بغض طرفه ، وأمره إيّاها بأنْ تمشي خلفه . والقوي القادر العظيم المقدور ، ومنه وصف الله تعالى بأنه القوي العزيز ، وأصل القوة شدّة الفتل من قوي الحبل ، وهي طاقاته التي يفتل عليها ، ثم نقل إلى معنى القدرة على الفعل . والأمانة خاصة للتأدية على ما يلزم فيها ، وهي ضد الخيانة ، والثّقة مثل الأمانة(٣٠).

وفي تقديم صفة القوة على الأمانة، إيحاء بأنّ ما تفتقر إليه هذه الأسرة في وضعها الراهن، هو القوة لمعادلة ضعف الشيخ، وليس للتقليل من شأن الأمانة، وتفضيل القوة عليها ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾(٣١) .

وفي التماس إحدى ابنتي النبي شعيب عليه السلام من أبيها أن يستأجره لهم تعبير عن الإعجاب الطاغي بهذه الشخصية التي تبدو أنّها تحمل مواصفات أبيها، فأبوها نبي ، وهذا الشاب نبي مرشح ، ويؤيد ما تذهب إليه الآية التي عبَّرت فيها هذه الفتاة عن إعجابها بذلك الشاب ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ...﴾ (٣٢) ، حيث أعقب هذا الإعجاب مباشرة أن عرض الأب على الشّاب الزّواج من احدى ابنيه بعد أن أدرك ما تصبو إليه ابنته على عادة المرأة في التلميح والإشارة (٣٣).

ب – رؤية القرآن الكريم للمرأة :

قال تعالى:﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾(٣٤).

لقد توقّفنا عند هذه الآية الشريفة ، والذي استوقفنا فيها جزؤها ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ ذلك الذي أصبح كالمثل السائر بين عامة الناس وخاصّتهم، وصِيغَ بالصورة الآتية (إِنَّ كَيْدَهُنَّ عَظِيمٌ)، والمراد به النساء ، إذ عدّ المجتمع النساء شياطين وشريرات، بل يتفوقن على الشيطان في مكرهن، وكيدهن، وخداعهن ، ذلك أن الله قد أكد ذلك في محكم كتابه ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، فأصبح حكماً تقريرياً لا يقبل الجدل والمناقشة، ولكن كل هؤلاء على وهم، ويعبر ذلك

عن قصور في فهم كتاب الله، وعدم تعمق في دراسته، إذ إنه من خلال متابعة قصة يوسف عليه السلام، وتمييز شخوص هذه القصة، ومعرفة دور كل من هؤلاء الشخوص، أنّ القرآن قام بعملية نقل حي وواقعي للأحداث من دون أدنى تلاعب حتى بالألفاظ ، حيث نجد في هذه السورة نصوصًا، وكلماتٍ لم نألفها في سائر سور القرآن وقصصه، من قبيل ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ و﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ إلى غير ذلك من الكلمات والنصوص التي وردت على لسان قائليها من دون أدنى تلاعب أو تحريف؛ وذلك حفاظًا على تسلسل الأحداث، وانتقالها في سبيل الوصول إلى الغرض الذي ترمي إليه هذه القصة(٣٥).

وهذا ما يميّز القصص القرآني من سواء من القصص، التي يغلب عليها عنصر الخيال واصطناع الأحداث دورًا كبيرًا.

ومن كل ذلك يتضح لنا أنّ جزء الآية ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ ليس لله، وإنما هو لإحدى شخصيات القصة وهو ابن عم زليخا كما تشير إلى ذلك الروايات، حيث إن الآية السابقة تشير إلى ذلك بوضوح تام(٣٦) ، وذلك في قوله تعالى :﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ *وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ* فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾(٣٧) .

وهذا يعكس النظرة الاجتماعيّة في المرأة آنذاك، من أنها مجبولة على المكر والكيد والخداع، وحاشا لله أن يصدر مثل هذا الحكم على مخلوق رفعه إلى مرتبة الإنسانيّة، وجعله يمثل شطر الحياة، إذ لا حياة بدون تفاعل، واتحاد قطبيها الرجل، والمرأة ، قال تعالى: ﴿يَا أَيهَا الناسُ إنا خَلَقْنَاكُم من ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِن أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِن اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣٨) .

إن مقيـــــــــــاس الأفضليّة هو التقوى بصريح القرآن الكريم ، والتقوى من الصفات المكتسبة ، أي إنّ الإنسان لا يولد تقيًّا ، ولكنه يكتسب التقوى بعد ولادته ، وعلى هذا الأساس ، نقيس كل ما يمكن أن يكتسبه الإنسان في حياته ، ويحقق به قصب السبق عن غيره ، سواء أكان ذكرًا ، أم أُنثى.

٦- دلالة التقديم في القرآن الكريم :

أ – دلالة تقديم الموت على الحياة :

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُل شَيْءٍ قَدِيرٌ* الذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾(٣٩) .

نلحظ في الآية الثانية أن الله سبحانه وتعالى قدَّم الموت على الحياة ، وهناك سر بليغ في تقديم الموت على الحياة ، يوحي لنا بأن الحياة الدّنيا في حقيقتها موت ، وأن الحياة الحقيقية هي الحياة الآخرة ، إذ إنّه ، وبحسب مقاييسنا، وبمدلول كلمة (موت) التي هي ضد الحياة، يجب تقديم الحياة عليها، وليس العكس ، وحيث إننا نطلق علـــــى من يعيش في هذه الدنيا بأنّه حي يرزق، ومتى ما مات انقطع رزقه ، ودخل عالم الأموات. ولعلَّه قدّم الموت ؛ لأنّه إلى القهر أقرب ، أو لأنّه أقـــــــــدم ؛ لأنّ الأشيـــــــــاء في الإبتداء كانت في حكم الموت كالنّطفة، والتّراب، ونحوهما، ثم طرأت عليها الحياة ، على حين أنّ القرآن في هذه الآيـــــة الكريمة يقلب التصورات، ويلغي المقاييس التي تحكم على الأشياء بظواهرها، فيقرر حقيقة في غاية الأهميّة، وهي استمراريّة الحياة ، وارتقاؤها ، وصعودها إلى ما يبلغ النفس الإنسانية مناها، وهي النفس المطمئنّة في الخلود الأبدي في جوار الحي الذي لا يموت أبدًا[٤٠]، قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِن الدارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[٤١] .

ب – دلالة تقديم الإناث على الذكور :

قال تعالى : ﴿لِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [٤٢].

لمَّا ذكـــــــر الله إذاقة الإنســـــــان الرحمة ، وإصابته بضدها ، أتبع ذلك أنَّ له – لا لغيره – مُلكَ السموات ، والأرض ، فهو خالقهما ، والمتصرف فيهما يخْلُق ما يشاءُ ، فيهب لعباده من الأولاد ما تقتضيه مشيئته فيخص بعضًا بالإناث لا غير، وبعضا بالذكور دون الإناث ، ويتفضل سبحانه وتعالى على من يشاءُ من عباده بالجمع بين الذكور ، والإناث على التعاقب ، أو في حمل واحد، ويجعل من يشاء عقيمًا لا ولد له.

وتقديم الإناث على الذكور في الآية ؛ لعلَّهُ لبيان أن الله يُعطي ما يُريدُه لا ما يُريده الناس؛ لأن الناس تهوى الذكور ، وخصوصًا العرب، أو لعلّ التقديم في هذه الآية جاء توصية برعاية الإناث؛ لضعفهن، ولا سيّما أنّهم قد كانوا قريبي عهد بالوأد ، وورد في الحديث النبوي الشريف: «مَنْ ابتُلى بِشيءٍ من هذه البناتِ ، فأَحْسنَ إليهنَّ ، كُنَّ له سِتْرًا من النارِ» [٤٣].

وكـــــــذلك نلحظ أنّ لفظ الذكور جاءَ مُعَرَّفًا ، ولفظ الإناث مُنَكَّرًا ؛ للتنويه بما للذكور غالبًا من مكانة في نفوس الآباءِ ، والرّغبة فيهم ؛ لأنّ التعريف تنويه ، وإشادة [٤٤] .

٧– وصف القرآن الكريم بما هو عليه أصلاً :

قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ (٤٥)

في هذه الآية المباركة نتوقف عند كلمة «كَرِيمٌ» التي جاءت على سبيل الوصف للقرآن، فوصفته بأنه كريم ، ولا شكَ فيه أَنَّهُ كذلك ؛ لأنه جاء من عند اللَّه تعالى ، وهو أنزله على النبي محمد ﷺ ، وأنه كتاب عزيز ، وهو أصل التشريع السماوي، وأساس القانون الإسلامي ، والقرآن منزل من لدن عليم حكيم ، فلا نتوقع منه أي حرف زائد، أو جاء دونما حكمة ، أو قصد، ناهيك عن كلمة بكاملها.

إذن ، لا بُدّ من أنْ تحمل كلمة «كَرِيمٌ» دلالات غاية في الدّقة ، والأهميّة في الإشارة إلى صفة القرآن ، والعمل على تطبيق أحكامه ، وإيصال نوره إلى الشعوب الأخرى التي كانت تتخبط في متاهات العمى والضلال.

لمَّا ذكـــــــــــــــر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة جزاء كل من السابقين، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، وما يلقونه من نعيم تتفاوت درجاته، وتتباين منازله حسب مقام كل من الطائعين، وما يناله ، ويعانيه أهل الشقاء ، وأصحـــــــاب الشمال من عذاب مقيم فيه شدة عليهم، وإيلام بهم جزاء ما كانوا يعملون في الدنيا من كفر ، وعصيان ، ونكران ليوم يبعث الله فيه عباده للحساب، لمَّا ذكر ذلك، جاء قوله تعالى : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ ، وما بعده من الآيات لتأكيد أن القرآن الكريم الذي ذكرت فيه تلك الأمور هو من عند الله جل شأنه ، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ حلف ، وقَسَم بناءً على أنّ (لا) جاءت في النّظم الكريم لتأكيد القَسَم ، وتقويته ، وأنّ هذا القَسَم الذي أقسمت به لقَسَمٌ جليل، لو تعلمون قدره ، ومكانته ، لعظّمتم المُقْسَم عليه ، وهو القرآن الكريم ، وإنّ هذا القرآن الذي أنزله الله على محمَّد (ص) حسن مرضيّ رفيع القدر في جنسه بين الكتب المنزلّة من عند الله ، كثير المنافع ، أو كريم على الله، أو على المؤمنين ؛ لأنه كلام ربّهم ، وشفاءُ صدورهم ، أو لما فيـــــه من كريم الأخلاق ، ومعالي الأمور، أو لأنّه يكرّم حافظه ، ويعظّم قارئه، والحق أنّ القرآن الكريم جدير ، وحقيق بهذه الصّفات جميعًا(٤٦)

٨- سلخُ النهارِ من الليل :

قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لهُمْ اللَيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النهَارَ فَإِذَا هُم مظْلِمُونَ﴾(٤٧) .

تبهر عقولنا في هذه الآية الاستعارة اللطيفة للفعل (نسلخ) ، فالمعروف عن عملية السلخ أنّها تُطلق على نزع جلد الذّبيحة ، ذلك النزع (أي السلخ) الذي يتّخذ طابع التدرج إلى أن ينتهي بنزع الجلد كلّه ، وكذلك انحسار ضوء النهار ،وانقضاء ساعاته، وحلول ساعات الليل محلـــــها، فإنّها تقترب من عملية سلخ الجلد، فكأنّ الليل هو الشاة ، والنهار جلدها، وسلخ النهار من الليل لا يتم دفعة واحدة ، بل ينسلخ شيئًا فشيئًا، إلى أن ينتهي بحلول

الظلام ، ورجوع الليل، وذلك أن الأصل هي الظلمة ، والنهار داخل عليها، فإذا غربت الشمس سلخ النهار من الليل، فتظهر الظلمة [٤٨].

والتّعبير القرآني عن هذه الظاهرة – في هذا الموضع– تعبير فريد. فهو يصوّر النهار متلبّسًا بالليل ، ثم ينزع الله النهار من الليل ، فإذا هم مظلمون. ولعلنا ندرك شيئا من سر هذا التعبير الفريد حين نتصوّر الأمر على حقيقته. فالأرض الكروية في دورتها حول نفسها في مواجهة الشمس تمر كل نقطة منها بالشمس ، فإذا هذه النقطة نهار حتى إذا دارت الأرض ، وانزوت تلك النقطة عن الشمس، انسلخ منها النهار ، ولفّها الظّلام– وهكذا تتوالى هذه الظاهرة على كل نقطة بانتظام ، وكأنّما نور النهار ينزع ، أو يسلخ ، فيحل محله الظلام. فهو تعبير مصوّر للحقيقة الكونية أدق تصوير [٤٩].

إذاً، في استعارة الفعل (نسلخ) إشارة دقيقة إلى كروية الأرض ، فلو كانت الأرض مستوية؛ لشملها ضوء النهار دفعة واحدة، وانحسر عنها دفعة واحدة ، ولكن كرويتها ، ودورانها حول نفسها يوجب التّدرج في ذلك، تمامًا كعملية السّلخ التي لا تكون مرة واحدة.

وهكذا تمتزج الرّوعة الفنيّة بالدّقة العمليّة، فالإشارات والتّشبيهات، وسائر النكت البلاغية لا تتم بصورة عشوائيّة في كتاب الله.

٩– من عجائب القرآن الكريم :

أ– نسبة عمل الخبائث إلى القرية :

قال تعالـــــــــى : ﴿وَلُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ﴾ [٥٠].

نلحظ في قولـــــــــه سبحانه : ﴿وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ ، إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ﴾ أن لفظ القرية هاهنا مستعار. والمراد به الجماعة التي كانت تعمل الخبائث من أهل القرية. وكشف سبحانه عن ذلك بقوله : ﴿إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ﴾، وفي هذا الكلام خبر عجيب ؛ لأنـــــــه تعالى جعل ما يلي لفظ القرية مؤنثًا ، إذ كانت مؤنثة ، فقال : ﴿الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ﴾، وجعل بقية الكلام مذكرًا ، فقال : ﴿إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ﴾ ؛ لأن المراد به مذكر، فصار الكلام في الآية على قسمين : قسم عائد على اللفظ ، وقسم عائد على المعنى. وهذا من عجائب القرآن الكريم[٥١].

ب – عطف المنفيّات من المفردات ، والجمل :

قال تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (٥٢) .

إنّ من ينعـــــم النظر في تركيب هذه الآية الكريمة يجدهُ تركيبًا عجيبًا ، فقد احتوت على واوات عطف ، وأدوات نفي ، فكلّ من الواوين اللّذين في قوله: ولا الظّلمات إلخ..، وقوله: الظّلّ إلخ.. عاطف جملة على جملة ، وعاطف تشبيهات ثلاثة ، بل تشبيه منها يجمع الفريقين. والتّقدير: ولا تستوي الظّلمات ، والنّـــــــــور ، ولا يستوي الظّلّ ، والحرور، وقد صرّح بالمقدّر أخيرًا في قوله: وما يستوي الأحياء ، ولا الأموات.

وأمّا الواوات الثّلاثة في قوله: والبصير ، ولا النّور ، ولا الحرور ، فكلّ واو عاطف مفردًا على مفرد، فهي ستّة تشبيهات موزّعة على كلّ فريق ، فالبصير عُطِفَ على الأعمى، والنّور عُطِفَ على الظّلمات، والحرور عُطِفَ على الظّلّ، ولذلك أُعِيدَ حرف النّفي.

وأمّا أدوات النّفي ، فاثنان منها مؤكّدان للتّغلّب الموجّه إلى الجملتين المعطوفتين المحذوف فعلاهما ، (ولا الظّلمات ، ولا الظّلّ)، واثنان مؤكّدان لتوجّه النّفي إلى المفردين المعطوفين على مفردين في سياق نفي التّسوية بينهما ، وبين ما عُطِفا عليهما ، وهما واو ، (ولا النّور)، وواو (ولا الحرور)، والتّوكيد بعضه بالمثل ، وهو حرف (لا) ، وبعضه بالمرادف ، وهو حرف (ما) ، ولم يؤت بأداة نفي في نفي الاستواء الأوّل؛ لأنّه الّذي ابتدئ به نفي الاستواء المؤكّد من بعد ، فهو كلّه تأييس. وهو استعمال قرآنيّ بديع في عطف المنفيّات من المفردات ، والجمل (٥٣).

الخاتمة :

بعـــد هذه الوقفات القرآنية في البحث عن أسرار عدد من الاستعمالات القرآنية اللطيفة والعجيبة في التركيب والدلالة ، تبيّن لنا دقّة استعمال حروف المعاني ، ومنها دلالة الجمع بالواو في قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ ، إذ اتَّضحت لنا الوظيفة التي أداها حرف العطف (الواو)، والخطورة التي انطوت على الكشف عن سرّ موقعه في هذه الآية المباركة.

كذلك استعمال حرف الجر (عن) في قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ ، فلولا مجيئه في هذا التركيب النحوي والسياق اللغوي ، ما تحقَّقَت هذه الصورة البلاغية البديعة ، وهذا المعنى اللطيف .

كما تبيَّنت الفروق الدقيقة بين التراكيب المتشابهة في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ .

ففي الآية الأولى يخشى أهل الأولاد من شبح الفقر الذي يتجسد لهم، بمجرد أن يولد لهم مولود، لذلك تعهد الله برزق هؤلاء الأولاد (نحن نرزقهم) يعود الضمير (الهاء) على الأولاد ، وفي الآية الثانية يعيش أهل الأولاد حالة الفقر فعلاً، لذلك طمأنهم الله بأنّه سيرزقهم هم (نحن نرزقكم) يعود الضمير على أهل الأولاد .

ووقف التحيّر عند دلالة مجيء الفعل المضارع بعد (رُبَّ) على خلاف الشائع في قوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ فدلّ الفعل المضارع بعد (ربّما) على الزّمن الماضي ؛ إذ إن المعنى هو: ربّما ودّوا لو كانوا مسلمين ،والسّرّ في ذلك مجيء ربّ في هذا الموضع للتكثير والإحاطة بحروف المعجم في آية واحدة، إذ إن جميع حروف المعجم العربي قد وردت في هذه الآية من الهمزة إلى الياء ، وذلك في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

ومن لطائف القرآن الكريم ، دلالة تقديم الموت على الحياة ، إذ نلحظ أنّ الله سبحانه وتعالى قدَّم الموت على الحياة ، وهناك سر بليغ في تقديم الموت على الحياة ، يوحي لنا بأن الحياة الدنيا في حقيقتها موت ، وأن الحياة الحقيقية هي الحياة الآخرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُل شَيْءٍ قَدِيرٌ * الذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.

كذلك كشف البحث عن سبب تقديم الإناث على الذكور في قوله تعالى : ﴿لِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ ، لعلَّهُ لبيان أن الله يُعطي ما يُريدُه لا ما يُريده الناس؛ لأن الناس تهوى الذكور ، وخصوصًا العرب، أو لعلّ التقديم في هذه الآية جاء توصية برعاية الإناث؛ لضعفهن، ولا سيما أنهم قد كانوا قريبي عهد بالوأد .

ومن الاستعمالات القرآنية اللّطيفة وصفه سلخ النهارِ من الليل ،قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لهُمْ اللَيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النهَارَ فَإِذَا هُم مظْلِمُونَ﴾. إذ نلحظ الاستعارة اللطيفة للفعل (نسلخ)، فالمعروف عن عملية السلخ أنها تطلق على نزع جلد الذبيحة، ذلك النزع (أي السلخ) الذي يتخذ طابع التدرج إلى أن ينتهي بنزع الجلد كله، وكذلك انحسار ضوء النهار، وانقضاء ساعاته.

ومن أسرار القرآن الكريم نسبة عمل الخبائث إلى القرية ، قال تعالى : ﴿وَلُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ﴾. نلحظ أن لفظ القرية هاهنا مستعار. والمراد به الجماعة التي كانت تعمل الخبائث من أهل القرية.

ومن استعمالات القرآن العجيبة عطف المنفيّات من المفردات ، والجمل في قوله تعالى:﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ .

إنّ من ينعـــــم النظر في تركيب هذه الآية الكريمة يجدهُ تركيبًا عجيبًا ، فقد احتوت على واوات عطف ، وأدوات نفي ، فكلّ من الواوين اللّذين في قوله: ولا الظّلمات إلخ..، وقوله: الظّلّ إلخ.. عاطف جملة على جملة ، وعاطف تشبيهات ثلاثة ، بل تشبيه منها يجمع الفريقين. والتّقدير: ولا تستوي الظّلمات ، والنّور ، ولا يستـــــــــــوي الظّلّ ، والحرور، وقد صرّح بالمقدّر أخيرًا في قوله: وما يستوي الأحياء ، ولا الأموات.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .

- الإنصاف فيما تضمنه الكشاف، أحمد بن محمد الإسكندري المالكي (ت ٦٨٣هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م .
- بحار الأنوار، العلامة محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ)، تحقيق : السيد إبراهيم الميانجي ، ومحمد الباقر البهبودي ، الطبعة الثالثة المصححة ، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- بحـــــــر العلوم ، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي (ت ٣٧٣هـ)، تحقيق: د.محمود مطرجي ، دار الفكر - بيروت ، د.ت .
- تاج العروس من جواهر القاموس، أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، الملقب بمحمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، الكويت ، د.ت.
- التبيان في تفسير القرآن ، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق وتصحيح : أحمد حبيب قصير العاملي ، ط١ ، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، إيران، ١٤٠٩ هـ .
- التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر - تونس ، ١٩٨٤هـ .
- التحقيق في كلمات القرآن الكريم ، الشيخ حسن المصطفوي ،ط١ ، مؤسسة الطباعة والنشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران ، ١٤١٧هـ .
- تذكرة الفقهاء ، الحسن بن يوسف بن المطهر ، العلامة الحلي ، (ت ٧٢٦ هـ) ، تحقيق : مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، ط١ ، مطبعة مهر - قم، محرم ١٤١٤هـ.
- تفسيـــــر القرآن ، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (ت٦٦٠هـ) ، تحقيق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي ، ط١، دار ابن حزم - بيروت ، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م .
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، تأليف : مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، القاهرة ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، ، الطبعة الأولى، (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م) - (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م) .
- تلخيص البيان في مجازات القرآن، محمد بن الحسين، الملقب بالشريف الرضي(ت٤٠٦هـ)، دار الأضواء - بيروت ، د.ت .
- التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري (ت ١٤١٤هـ)،ط١ ، دار الغرب الإسلامي، بيروت -

لبنان، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

- جامع البيان في تأويل القرآن ،محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت٣١٠هـ) ، تحقيق: أحمد محمد شاكر ،ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م .
- حقائق التفسير = تفسير السلمي ، محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم النيسابوري، أبو عبد الرحمن السلمي (ت ٤١٢هـ) ، تحقيق: سيد عمران ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م .
- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب ، شمس الدين محمد بن عبد المنعم بن محمد الجَوجَري (ت ٨٨٩هـ)، تحقيق: نواف بن جزاء الحارثي، ط١ ، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية ،١٤٢٣هـ – ٢٠٠٤م.
- شعب الإيمان ، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول،ط١ ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٤١٠هـ .
- الصورة الفنية في المثل القرآن، الدكتور محمد حسين علي الصغير، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ، ١٩٨١م .
- في ظلال القرآن ، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت ١٣٨٥هـ) ، ط١٧ ، دار الشروق – بيروت– القاهرة ، ١٤١٢هـ .
- القرآن والحياة الجنسية، طارق شفيق الطاهري، الطبعة الثانية، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٨٣م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت، د.ت .
- الكشف والبيان عن تفسير القرآن ، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (ت ٤٢٧هـ)، تحقيق: أبو محمد بن عاشور ، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م .
- اللمحة في شرح الملحة ، محمد بن حسن بن سِباع بن أبي بكر الجذامي، أبو عبد الله، شمس الدين، المعروف بابن الصائغ (ت ٧٢٠هـ)، تحقيق: إبراهيم بن سالم الصاعدي ط١ ، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية ، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م .
- مجمع البيان في تفسير القرآن ، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي ، (ت ٥٤٨ هـ)، تحقيق وتعليق : لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين ، ط١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م .

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ،أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١ ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٤٢٢هـ.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م .
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي (ت نحو ٧٧٠هـ) ، المكتبة العلمية – بيروت ، د.ت .
- معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي ، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد البغوي (ت ٥١٠هـ) ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، ط١ ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ .
- معاني القرآن للأخفش ، أبو الحسن البلخي ، المعروف بالأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ)، تحقيق: الدكتورة هدى محمود قراعة،ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م .
- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير ، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي (ت ٦٠٦هـ) ط٣ ،دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ١٤٢٠هـ .
- المقتصد في شرح الإيضاح، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني(ت ٤٧١هـ)، تحقيق: الدكتور كاظم بحر المرجان، المجلد الثاني، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٨٢م.
- وظيفة الصورة الفنية في القرآن ، عبد السلام أحمد الراغب، ط١، فصلت للدراسات والترجمة والنشر – حلب ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م .
- تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣هـ)،تحقيق: د. مجدي باسلوم،ط١ ، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان ، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

الهوامش :

(١) النساء /٨٢.

(٢) الإسراء / ٢٣.

(٣) ينظر : معاني القرآن للأخفش الأوسط : ٢/٤٢١-٤٢٢ .

(٤) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري : ٤١٤/١٧، والكشاف ، للزمخشري : ٢/٦١٤-٦١٥ .

(٥) شعب الإيمان للبيهقي: باب في بر الوالدين ، رقم الحديث (٧٨٢٩) : ٦/١٧٧.

(٦) النمل/٤٤ .

(٧) محمد / ٣٨ .

(٨) البيت للمعلوط بن بدل القُريعي، يُنظر هذا البيت في: الكتاب: ٢٢٢/٤، والخصائص: ١١٠/١، والأزهية: ٩٦، وشرح المفصل: ١٣٠/٨، والمقرب: ٩٧/١، وأوضح المسالك: ١٧٣/١، والخزانة: ٤٤٣/٨.

(٩) الشورى / ٢٥ .

(١٠) النجم / ٣ .

(١١) الانشقاق / ١٩ .

(١٢) هود / ٥٣ .

(١٣) ينظر : اللّمحة في شرح المُلحة ، لإبن الصائغ :١/٢٣١-٢٣٣ ، وشرح شذور الذهب ، للجوجري : ٢/٥٤٦-٥٤٧.

(١٤) ينظر : تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي : ٦ / ١٨٠ .

(١٥) ينظر : القرآن والحياة الجنسية، طارق شفيق الطاهري : ١١٨.

(١٦) الإسراء / ٣١ .

(١٧) الأنعام / ١٥١ .

(١٨) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن : ١٧ / ٤٣٦-٤٣٧ ، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي : ٣ / ٤٥١-٤٥٢ .

(١٩) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن : ١٢ / ٢١٧-٢١٨ .

(٢٠) ينظر : التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري : ٢ / ١٨١ .

(٢١) المصباح المنير ، للفيومي : (و ل د) ، ٢ / ٦٧١.

(٢٢) ينظر : مفاتيح الغيب = التفسير الكبير ، للرازي : ٢٠ /٣٣١ ، وتفسير القرآن، العز بن عبد السلام: ٢ / ٢١٨.

(٢٣) ينظر : في ظلال القرآن ، سيد قطب : ٤ / ٢٢٢٣ .

(٢٤) الحجر / ٢ .

(٢٥) غافر / ٧١ .

(٢٦) المقتصد في شرح الإيضاح ،عبد القاهر الجرجاني : مج٢ / ٨٣٥ .

(٢٧) الفتح / ٢٩ .

(٢٨) ينظر : الصورة الفنية في المثل القرآني، د. محمد حسين علي الصغير: ٢٥٨.

(٢٩) القصص / ٢٦ .

(٣٠) ينظر : التبيان في تفسير القرآن ، للطوسي : ٨ / ١٤٤-١٤٥ .

(٣١) القصص / ٢٣ .

(٣٢) القصص / ٢٧ .

(٣٣) ينظر : مجمع البيان في تفسير القرآن ، للطبرسي : ٧ / ٤٣١ ، والإنصاف فيما تضمنه الكشاف ، أحمد بن محمد الإسكندري المالكي : ٣ / ١٧٢.

(٣٤) يوسف/ ٢٨ .

(٣٥) ينظر : الكشاف : ٢ /٤٣٥ ، والمحرر الوجيز : ٣ / ٢٣٦ .

(٣٦) ينظر بحر العلوم ، السمرقندي : ٢ / ١٨٩ .

(٣٧) يوسف/ ٢٦ – ٢٨ .

(٣٨) الحجرات / ١٣ .

(٣٩) الملك/ ١ – ٢ .

(٤٠) ينظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن ، للثعلبي ٩ : ٣٥٥ ومعالم التنزيل في تفسير القرآن ، للبغوي : ٥ / ١٢٤.

(٤١) العنكبوت/ ٦٤.

(٤٢) الشورى / ٤٩ – ٥٠ .

(٤٣) مسند الامام أحمد بن حنبل ٤ / ٦١ رقم الحديث (٢٤٠٥٥) .

(٤٤) ينظر : التفسير الوسيط للقرآن الكريم : ٩ / ٧٧٢ .

(٤٥) الواقعة / ٧٥ – ٧٧.

(٤٦) ينظر : التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، مجموعة من علماء الأزهر: ٩ /١٢٦٦ ـ ١٢٦٨ ، ومعالم التّنزيل في تفسير القرآن : ٥ / ١٩ .

(٤٧) يس / ٣٧ .

(٤٨) ينظر : معالم التّنزيل في تفسير القرآن : ٤ / ١٣ ، ووظيفة الصورة الفنيّة في القرآن : عبد السلام أحمد الرّاغب : ١ / ١٢٨ ـ ١٢٨ .

(٤٩) ينظر : في ظلال القرآن : سيد قطب : ٥ / ٢٩٦٨.

(٥٠) الأنبياء / ٧٤ .

(٥١) ينظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن ، الشريف الرضي : ٢ / ٢٣٠ ، وتفسير الماتريدي : ٧ / ٣٦٠ .

(٥٢) غافر / ١٩ ـ ٢٢ .

(٥٣) ينظر : التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور : ٢٢ / ٢٩٣ ـ ٢٩٤ .